الظمأ !!

انطلق حذيفة العدوى يوم اليرموك ـ وقد احتدم القتال بين المسلمين والمشركين ـ يبحث عن ابن عمه ، الذى بعث فى طلبـه ، وأرسل إليه يستدعيه ..

لم يكن حذيفة يدرى لأى غرض يريده ابن عمه ، غير أن هـذا لم يكن ليشغله كثيراً ، و إنمـا الذى كان يشغله فى ذلك الوقت ، هو القتال الدائر على قدم وساق ، بين دعاة الحق والعدل من المسلمين ، وطغاة الباطل والزور من المشركين والروم .. لقد ظل المسلمون مدة مجتمعين لا يتقدمون خطوة واحدة ، وكأنهم يخشون هذه الكثرة المخيفة من جيوش الروم ، وما كاد يقبل خالد بن الوليد سيف الله المسلول ، من فارس ببعض جنده هناك ، حتى أثار الحمية فى القلوب ، وأوقد النار وأشعلها ، وأصبح جيش المسلمين متحفزاً متوثباً ، يتطلع إلى الموت لينال بذلك أعظم ما يرجو و يتمنى .. يتطلع إلى الشهادة و إلى الجنة ، التى وعد الله بها عباده المتقين .. !!

وكان حذيفة العـدوى يشعر بالعزة الإسلامية تملك عليـه نفسه ، والكرامة السامية تسيطر عليه ، فلقد أوغل جيش المسلمين فى جيش الروم ، وأمكنه أن يزحزح هذه الجموع الكثيفة و يجلوها عن أماكنها ، ومعنى هـذا الانتصار المظفر لجيش التوحيد ، والهزيمة الساحقة لجيش الكافرين الضالين ..

ولم ينس حذيفة وهو يبحث عن ابن عمه أن يحمل معه قليلا من الماء، فالجندى فى الميدان ، والمحارب فى الجيش ، لايحتاج إلى شىء حاجته إلى الماء ، يحفظ الرمق ، ويمسك الحياة ..

وعلكه شعور عجيب ، انقبض له قلبه أوّلا ، وارتجف فؤاده رجفة خفيفة ، فلقد طاف بفكره خاطر سريع ، فمن الجائز أن يكون ابن عمه قد لقى حتفه مع من استشهدوا هذا اليوم ؟ وما المانع أنه يكون سعيداً بهذا الاستشهاد ، وأن هذا الماء الذى يحمله إليه ، لايدرى سيكون من نصيب أى إنسان ؟! .

إنه يحمله إليه حقًّا ، فإن كان حيًّا يسقيه بعضه ، ويمسح وجهه بالبعض الآخر ، لينعشه ، ويذهب عنه وعثاء الميدان ، وغبار الطريق ، وإن لم يجده حيًّا سقى به من يجده من أفراد المسلمين ..

وما كاد حذيفة العدوى يتجه يميناً ، وينحرف قليلا ، حتى وجد ابن عمه حيًّا ، فأقبل عليه يقبله ويعانقه ، ويغبطه على هذه الطعنات التى أثقل بها جسمه ، فلا يمكنه لهذا أن يتحرك ، من كثرة ماناله من طعنات الرماح ، وضربات السيوف ..

لم يكن متألماً ، ولا متبرماً .. بل على العكس كان فرحاً مسروراً ، يفيض وجهه بالبشر والحبور ، وكأنه أدى واجبه على خير مايحب ، وأفضل مايرجو ، ويود أن يوهب من القوة ، مايستطيع بها أن يقاتل مرة أخرى ، ليشفى غليله من هؤلاء القوم ، الذين لادين لهم ، ولا عقيدة تعصمهم من

الشر ، وتباعد بينهم و بين الإثم والفجور .. هؤلاء الذين يساقون إلى القتال سوقًا كما تساق الأغنام إلى المذبح ، ليس لهم هدف سام يهدفون إليه ؛ ولا غرض نبيل يعملون على تحقيقه ، و إن بذلوا فى سبيل ذلك الدماء والأرواح ..

وسُرَّ حذيفة من ذلك ، وعجب لهذه الروح ، التى تسيطر عليه وهو يعانى آلام النزع و يقاسى سكرات الموت، وود أن تجىء ساعته هو الآخر؛ وهو على هذه الحال السارة .. هذه الحالة النفسية ، التى هى أساس انتصار الجيوش، وتقدم الأمم ، وأى دين يربى النفوس ، و يجعلها تأتى بالعجائب ، غير الدين الإسلامى ، الذى عالج أدق الأمور ، ونظر بعين الاعتبار إلى كل مايصلح أمر الإنسان ، و يفيده فى دنياه وأخراه ؟؟ ! .

وكادت تصرف هذه المشاعر حذيفة عن الغرض الذى جاء من أجله ، لولا أن تذكر الماء الذى معه ، فأمسك به فى الحال وقال لابن عمه فى عطف ورفق :

— آسقيك من هذا الماء ؟ .

فأشار إليه ابن عمه فى صوت خافت . قائلا :

— نعم .. !!

وما كاد الجريح يمسك بالماء فى يديه ، ليرفعه إلى فيه ، حتى ارتفع فى الجو صوت متألم ، ينّ صاحبه أنينًا مكتومًا ؛ قائلا :

فأبعد الماء عن فيه ؛ وقال لحذيفة :

- انطلق به إليه ..

— أنطلق به إليه ؟! كيف هذا ؟ .. اشرب أنت أوّلا .

— لا .. فليست نفسى بأعز من أية نفس مسلمة ..

وذهل حذيفة لهذا الإيثار العجيب .. إن ابن عمه فى مكنته أن يشرب ولو قليلا من هذا الماء ، ولكنه لم يفعل خشية أن يكون صاحب هذا الصوت أحوج منه إليه ، فاحترم هذه الرغبة ؛ ولم يرد أن يحرمه هذا الفضل الذى يريد أن يحصل عليه ؛ وتلك الرتبة التى يريد أن ينالها . فذهب بالماء صوب الصوت الذى سمعه ، وتطلع هنا وهناك ؛ فإذا به يجد هشام بن العاص .. !!

ونظر إليه حذيفة نظرة فاحصة ؛ فوجده يعانى من الألم ما ينوء بحمله إنسان ، فقال له فى عطف :

— آسقيك من هذا الماء ؟! .

فقال هشام بن العاص فى صوت لايكاد يسمع

— نعم ..

وما كاد الماء يصل إلى فيه حتى سمع آخر يهتف فى ألم وحرقة ، ويتوجع فى عنف قائلا :

فأبعد هشام الماء عن فيه بسرعة ، وقال لحذيفة :

— انطلق به إليه ..

ووقف حذيفة دهشاً حائراً أمام هذا السمو النفسى العجيب ، إن فى وسع هشام أن ينال شيئاً من هذا الماء ، يبلّ به حلقه ، ويمسك عليه الحياة وهو فى أدق لحظاته ، وأحرج ظروفه .. فى هذا الوقت العصيب ، الذى لايذكر فيه الإنسان العادى إلا نفسه فحسب ، أما غيره من ذوى الحاجات ، فلا يكاد يفكر فيه ، ولا ينظر إليه ، فكيف بهشام يفعل ما فعل ابن عمه وكأنهما فكرا بعقل واحد ، أو بمعنى أدق ، شعرا بشعور متحد ..

ما أعجب هذه النفوس الإسلامية الرفيعة ، التى تعطى للتاريخ أروع المثل ، وأرفع الأحاسيس ، وأعظم التضحيات ، التى يتضاءل بجانبها تاريخ أى عظيم من العظماء ، وسيرة أى بطل من الأبطال ، من يوم أن خلق الله الدنيا ، إلى هذا التاريخ ..

وتناول حذيفة العدوى الماء ، واتجه به إلى ناحية الصوت ، يبحث عن صاحبه ، وقد استصغر نفسه أمام هذين النفسين ، وراح يفكر فى سرعة خاطفة ، ويسائل نفسه فى صراحة وإخلاص :

هل يكون إحساسه كإحساس ابن عمه ، وإحساس هشام ، حينما يكون فى مثل موقفهما ، أشد ما يكون أحدهما حاجة إلى الماء ، الذى عليه عماد الحياة ، فى وقت يشترى الإنسان اللحظة من الحياة بما علك من متاع

الآخرة قليلا ؟ هل يفعل مثل ما فعل هذان الرجلان ، و يؤثر غيره على نفسه ، دون أن يعلم من هـذا الغير الذى يؤثر ؟ أجل لايدرى عن ذلك الغير ، سوى أنه مسلم وكفى ، فهذه العلاقة هى عنده كل شىء ، ولا يعنيه بعد هذا أية علاقة كائنة ما كانت .

هل يكون شعوره على هذا الوضع من الإيثار ؟؟ .

من يدرى ؟! إنه التوفيق الإلهى ، فهنيئاً لهذين الرجلين، اللذين نجحا فى الاختبار .. اختبار النفوس ، التى يسيطر عليها دائماً الشيطان ، إلا من عصم الله .. !!

إن خير ما فى الدنيا عمل صالح ينفع فى الآخرة ، و يرضى عنه الله سبحانه وتعالى، و يجازى به الإنسان خير الجزاء، فمتى يعلم جميع الناس هذه الحقيقة ، فيعملوا لها جادين ، و يقبلوا على الله متناسين كل شىء سواه ، رافضين كل عمل لايوصل إليه ، ولا يراد به غير وجهه الكريم ، لأن كل عمل لايقصد به وجهه هباء لاقيمة له .. ؟ !

واتجه حذيفة صوب الرجل، وتطلع هنا وهناك بين أشلاء القتلى، فرآه يعانى آلام النزع ، وما كاد يصل إليه حتى وجده قد مات .. !!

ووضع أذنه على قلبه ، فلم يسمع نبضاً ، وقلّبه فى لطف ورفق ، فإذا بجميع بدنه قد برد ، ولم يعد يتردد فى صدره نفس .. ياالله لقد فارق الرجل الحياة ، وهو على هذه الحال من الظمأ والعطش ، فأى شهادة عظيمة هذه الشهادة ، التى تدفع به إلى زمرة الأنبياء والصديقين ، يحشر معهم يوم

القيامة ، فيطيب ذكره ، وتحسن خاتمته ، وينال بها عظيم الأجر ، وجليل الثواب !!

وأسرع حذيفة ليسقى هشاما قبل أن يموت هو الآخر ، فإذا به قد مات كذلك ، وخرج من هذه الحياة التى يتكالب عليها الناس ، وتمتد لهم فيها آمال كبار ، موصولة لاتنقطع ولا تنتهى ..

إذن فليسرع إلى ابن عمه قبل أن يفوت الأوان ، ويموت كما مات هذان الشهيدان ، يحترقان بألم الظمأ ، ويتلظيان بنار العطش .. فليسرع إليه علّه يدركه قبل أن يقضى ..

ولكن .. أراد الله أن يجده كما وجد زميليه ، اللذين آثرهما على نفسه ، وآثرهما بالحياة دونه ، فأراد الله أن يخرجهما من هذه الحياة دون أن تثقل عليهم جميعاً بمطالبها ، وتؤلمهم بإلحاحها ، وتدنسهم بآثامها ، وتضنيهم بأقذارها وأوساخها ..

ووقف حذيفة العدوى يقلب الطرف بين هؤلاء الثلاثة ، بعد ماجمع بينهم ، وهو يعجب من قوة الإيمان ، ويتمنى أن ينال هذه المرتبة السامية ، ويبلغ هذه الدرجة العظيمة . وأن يوفقه الله ليموت شهيداً على هذه الحال من الإيثار .. !!